٣ ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

وكما أجاد المسلمون فن الخط ، فقد بلغوا فى الزخرفة شأواً بعيداً أقل ما يشهد به أن كلمة (الأرابسك) عَلَم — فى تاريخ الفن — على نوع معين من الزخرفة ابتدعه الفنان المسلم . حقاً إنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من مخلفات الفنون السابقة على الإسلام ، إلا أنه لا سبيل إلى إنكار مقدرته فى طريقة رسم هذه الوحدات الزخرفية وتوزيعها والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقاً يجعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هى كذلك ، ولكنه صهرها فى بوتقته ومزجها بفلسفته وسلّط عليها أشعة عبقريته فخرجت من بين يديه فناً جديداً لا يخفى عليك أصله ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه شخصيته القوية الواضحة

لم يخترع أشكالاً هندسية جديدة ، ولكنه بالغ فى تقسيمها وتحليلها ، تراها تارة متشابكة ، وأخرى متداخلة ، وأحياناً متلاصقة وأحياناً متباعدة ، حتى ليصح لنا أن نقول فى اطمئنان إنه بعث فى هذا النوع من الزخرف روحاً من لدنه فبدا فى ثوب من الجمال قشيب لم يكن له قبل الإسلام

ولم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان ، والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويراً كادت معه أن تفقد شخصيتها كوحدات نباتية أو حيوانية ، ولكنها وإن بعدت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته

ونفر من الفراغ ، وكره أن يرى سطحاً عاطلاً من الزخرف فكرر الوحدات الزخرفية المذكورة تكراراً يمكن أن يستمر دون أن يقف عند حد

هذه المظاهر الجديدة إتقان الزخرفة الهندسية ، وتحوير العناصر النباتية والحيوانية ، وتكرار الوحدات الزخرفية ، والنفور من الفراغ ، هى فى الغالب نتيجة لبعض توجيهات فى الدين الإسلامى : فقد كان التصوير — وسنتحدث عنه فيما بعد — أمراً غير مرغوب فيه عند كثير من المسلمين نظراً لما حام حول محاولته من شك ، فانصرف نشاط الفنانين إلى نواح أخرى ؛ ولعلهم كانوا متأثرين فى بعض ما اتجهوا إليه بما روى فى صحيح البخارى (كتاب البيوع) عن سعيد بن أبى الحسن إذ يقول : « كنت عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ أتاه رجل فقال : يا ابن عباس ، إنى إنسان إنما معيشتى من صنعة يدى ، وإنى أصنع هذه التصاوير . فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، سمعته يقول من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً .

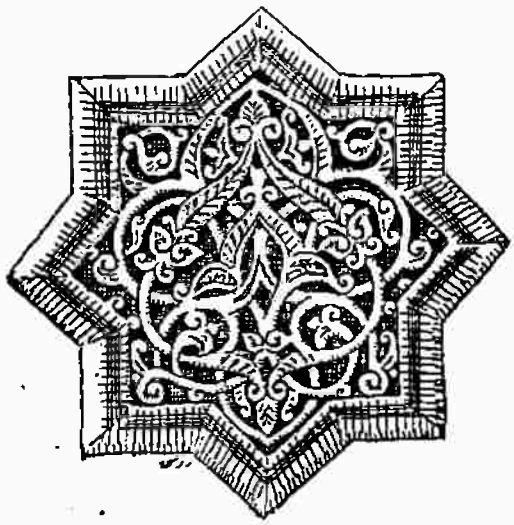

مثال من « الأرابسك » على الخشب من زخارف منبر ابن طولون — من كتاب تاريخ ووصف الجامع الطولونى للأستاذ « محمود عكوش »

فربا الرجل ربوة واصفر وجهه ؛ فقال ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شىء ليس فيه روح » فلا عجب إذا بلغت الزخارف الهندسية على يديهم ذروة الإجادة ، وأصبحت الزخارف النباتية آية فى الإبداع والإتقان وإن كانت بعيدة عن تمثيل الطبيعة تمثيلاً صحيحاً فى معظم الأحيان ، شأنها فى ذلك شأن الزخارف الحيوانية التى ترخص فى رسمها بعض الفنانين . على أن هذا البعد عن الطبيعة لم يكن نتيجة لضعف فى الملاحظة أو نقص فى المقدرة بل هو ، فى أغلب الظن ، مقصود لذاته ، ولعله ناشىء عن تلك العقيدة التى يؤمن بها كل مسلم أشد الإيمان : ذلك أن البقاء لله وحده ، وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله إلى الزوال (كل شىء هالك إلا وجهه) (كل من عليها فان ، ويبقى

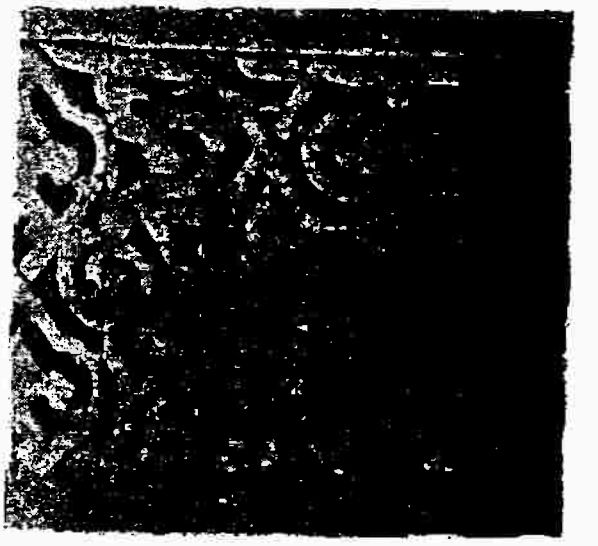

وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . وليس من اللائق وهذه العقيدة منقوشة فى أذهان المسلمين جميعاً أن يخلد رجال الفن منهم بأعمالهم الفنية ما كتب الله عليه الفناء ، لذلك تجدهم لم يعنوا بتصوير الشخصيات العظيمة فى لوحات كبيرة أو تماثيل ضخمة تبقى على الدهر ، أو تمثيل جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلاً صحيحاً ، بل يأخذون من عناصرها ما يرون ، ويهذبون فيه ما شاءت لهم ميولهم ومواهبهم الفنية ، ثم يكوّنون من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت إلى الطبيعة بصلة ، قوامها أغصان نباتية متشابكة يتفرع بعضها من بعض، وأوراق أشجار مختلفة يخرج بعضها من بعض، وأزهار وفواكه تنبت من الأوراق أحياناً ومن الأغصان أحياناً أخرى ، وهى فى مجموعها تعطى منظراً ترتاح له العين ويسر به الفؤاد

مثال من « الأرابسك » على الحجر — من زخارف المئذنة الجنوبية لمسجد الحاكم بأمر الله — من كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لمحمد عبد العزيز مرزوق

ويعنى الفنان المسلم عناية واضحة بالتفاصيل الدقيقة ، ويميل — بل ويسرف فى هذا الميل أحياناً — إلى عدم ترك فراغ ملحوظ بين الوحدات الزخرفية ، وربما كان مسوقاً إلى ذلك بفكرة كامنة فى نفسه تجعله حريصاً على أن يخرج زخرفته بحيث لا يستقر النظر فيها على شىء معين يترك فى الذهن صورة واضحة تحتل بؤرة الشعور . أما هذه الفكرة فهى رغبته فى الحيلولة بين نفسه وبين الغرور الذى يملك الفنان أحياناً عند ما يتأمل فى أثره الفنى فيراه واضح المعالم والخطوط ، ويدرك أنه استطاع أن يرسم بريشته ما يضاهىء به خلق الله . كما أنه أيضاً قد أمن — فى نفس الوقت بطريقته هذه — استغراق الناظر لذلك الأثر الفنى فى جمال الأثر فينسى مبدع الكائنات وهو يتأمل فيما صنعه الإنسان

مثال من « الأرابسك » على النسيج — من زخارف إحدى الحلل التى ترجع إلى عصر المستعلى بالله الخليفة الفاطمى — من كتاب الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية لمحمد عبد العزيز مرزوق

على أن هناك ظاهرة فى الزخرفة الإسلامية تلفت النظر ، تتجلى لنا فى الوحدات الزخرفية التى نرى فيها طائراً ينبت من جناحيه وذيله أغصان تتصل بها أزهار ، أو سمكة ينتهى ذيلها بفرع نباتى ويخرج من رأسها وجسمها أوراق أشجار ، أو رأس آدمى مركب على جسم طائر ذيله عبارة عن غصن طويل ملتف على نفسه ، أو قطعة من خشب على شكل قيثارة مثلاً يخرج من جانبيها الأيمن والأيسر رأسا حصانين فى فم كل منهما لجام يتخلص من طبيعته هذه بالتدريج حتى يصبح فرعاً نباتياً تتصل به أغصان وأزهار ، وينبت من أذن كل منهما فرع نباتى يدور حول نفسه أولاً ثم يتفرع إلى فروع عدة ، أو غير ذلك من الوحدات الزخرفية التى يجمع فيها الفنان عناصر الطبيعة المختلفة من حيوان ونبات وجماد بحيث يخرج بعضها من بعض ؛ وكأنه فى عمله هذا يرى أن المخلوقات كلها سواء يستوى لديه